

المحاولات الفرنسية لإحتواء سكان منطقة القبائل في المرحلة الاستعمارية



الدكتور: معيوش براهيم

جامعة محمد لمين دباغين سطيف - 2 -

ملخص:

لم تتوقف فرنسا في محاولتها إخضاع الشعب الجزائري عند حدود الهمجية المرعبة التي إقترفتها في حقّه بل فكّر سدنّتها أبعد من ذلك بكثير حتى يستكملوا كل مشاهد جريمتهم الحضارية، و بحكم أنّه ليس هناك ما هو ألصق بالإنسان من هويته فكّروا في تدمير البناء الثقافي والديني والعرقى للمجتمع الجزائري من خلال إثناء الصلة الوطيدة بين الثقافة الإسلامية العربية وبين الأمازيغ وبالأخص سكان منطقة القبائل الذين تعرضوا إلى مناورات كبرى من هذا الجانب أسفرت عن خلق تيار جزائريّ في مظهره وأصوله وفرنسيّ في توجهاته وقناعاته عرف تطورا ملحوظا بمرور الوقت وجذب إليه في فترة الاحتلال وما بعدها أتباعاً يتبنون الأفكار الجهورية والعنصرية المعادية للإسلام والعروبة .

Résumé :

Le plan colonial français ne s'est pas limité seulement à des pratiques inhumaines exercées sur les Algériens, mais cela a touché aussi les composantes culturelle, religieuse et ethnique. En effet, il a essayé de créer une sorte de rejet chez certains groupes ethniques tels que les Kabyles vis-à-vis leur culture d'origine. Cela a donné naissance à un courant algérien d'apparence et de fondement, mais français d'attitudes et de convictions. Ce courant s'est évolué durant la période coloniale et postcoloniale et a eu de nombreux militants qui ont adopté une idéologie régionaliste et raciste contre tout ce qui est arabo-musulman.

الكلمات المفتاحية : الأمازيغ ; منطقة القبائل ; مشروع الفرنسية.

تاريخ الارسال: 2017/12/18

تاريخ القبول: 2019/04/18

تاريخ النشر: 2019/12/22

مقدمة:

بعد سنوات قليلة من الاحتلال الفرنسي للجزائر وضع الخبراء الإستعماريون مشروعا يُفك عرى الرباط الوثيق الذي يجمع كل الأجناس والجماعات المكونة للمجتمع التي عاشت في تلاحم وتكامل مشهودين منذ قرون عديدة، وقد توجهوا به بشكل مركز إلى أهالي منطقة القبائل ليُرسخوا في أذهانهم أنهم أقلية مضطهدة مارس عليها العرب الفاتحون كل أشكال القهر ليحملوهم على قبول الإسلام واللغة التي جاء بها بالعنف والسيف، وهذا المشروع الذي أرادوه معول هدم يكون بأيدي أصحاب البلد يقطعون به جسور التواصل الثقافي بينهم ويُفرقون من خلاله بين أبناء الوطن الواحد الذين كَوّن منهم الإسلام مجتمعا متكافلا يتسم بوحدة متينة ذات حلقات وروابط عديدة ذابت فيها عقدة الإنتماء العرقي والهوياتي كان مرتكزا على ثلاث محاور

كبرى يتمثل أولها في إحلال النصرانية بالمنطقة مكان الإسلام ، وثانيها في بتر صله سكانها باللغة العربية من خلال نشر الفرنسية على أوسع نطاق للتعجيل بعملية إدماجهم بالإضافة إلى إحياء لهجتهم المحلية التي لا يتجاوز مجال إستعمالها التخاطب الشفوي دون الثقافة والفكر، أما ثالثها فقائم على إجراء دراسات لا تتضمن سوى أفكار متناقضة وبعيدة عن مقتضيات المنطق بسط فيها الباحثون أقلامهم وأعملوا فكرهم خدمة للأطروحة الاستعمارية ، وهذه المحاور التي ذكرناها آنفا هو ما سنعرضه في هذا المقال بشكل موجز لأنّ الحديث عنها يُمكن أن يشغل كتابا مستقلا فتوقفنا عند حد ما رأيناه هاما وكافيا .

1) تشويه الإسلام وتكثيف جهود الهيئات التنصيرية: لم تتوقف فرنسا طوال فترة الاحتلال عن التخطيط لتوليد العنصرية بين

تاريخ الارسال: 2017/12/18

تاريخ القبول: 2019/04/18

تاريخ النشر: 2019/12/22

أفراد المجتمع الجزائري بمختلف إنتماءاتهم العرقية وعن حياكة خيوط المؤامرات من أجل تمزيق وحدتهم الوطنية الثقافية والدينية ، وبطبيعة الحال مثل الأمة الفرنسية التي تتكون من أجناس كثيرة لكل منها لهجاتها وبعضها من مظاهر الخصوصية الثقافية يُدرك جيداً سدنيتها معنى أن يعيش مجتمع ما أزمة هوية فقد عاشت بلادهم ردحا طويلا من الزمن أناخت عليها هذه الأزمة بكل تبعاتها وأثارها السلبية ، ولهذا كان لابد منهم أن يستثمروا في التركيبة العرقية للمجتمع الجزائري ويجعلوا منها نقطة ضعف لا نقطة قوة لذلك بعد أن كانوا يعاملون الجميع بالاحتقار ولا يُفرّقون بين جنس وآخر ويُطلقون على كل سكان البلاد تعابير قدحيه لإهانة كرامتهم والحط من قدرهم كوصفهم بالبدائيين والهمجيين والجنس الوسخ ، بيكو ، الشعب الطفل ، المتوحش ، غير قابل للتربية(1) أعادوا التفكير في السياسة التي إنتهجوها لبسط نفوذهم على الأهالي حيث صرح (موريس واريني) وهو ضابط سامي بما

معناه أنّ الإستعمار الذي أراد ضمان بقائه في الجزائر وجعلها للأبد بلادا تابعة له أخطأ في إختيار السياسة المثلى التي يتوجب عليه نهجها لتحقيق ذلك كونه لم يعتمد على التفرقة والتمييز بين أبناء الأمة الجزائرية كما هو متعارفٌ عليه من القوى الإستعمارية منذ القدم والتي تعتمد في عملها داخل المستعمرات على شعار فرق تسد، فالذين كانوا قياما على شؤون السلطة الاستعمارية في المراحل الأولى للإحتلال لم يأخذوا بعين الإعتبار التركيب العرقي للمجتمع الجزائري الشيء الذي أوقعهم في أخطاء فادحة تمثّلت في إستخدام مفاهيم خاطئة منها القومية العربية والمملكة العربية ضارين عرض الحائط حقيقة أنّ سكان الجزائر ليسوا كلهم عرب بل هناك الجنس الأمازيغي الذي تُعد حسب فهمه الجماعات المكونة له صاحبة الدار أما نظيراتها العربية فهي ضيفة فقط ، وإذا ما أرادوا أن يُؤصلوا وجودهم بالبلاد فإنّه يتوجب عليهم إعادة الحياة الدّينية لأهالي منطقة القبائل إلى ما كانت عليه قبل

تاريخ الارسال: 2017/12/18

تاريخ القبول: 2019/04/18

تاريخ النشر: 2019/12/22

الفتح الإسلامي أين كانت المسيحية دين معظمهم وكان الإنجيل الناظم لكل العلاقات والعمليات الاجتماعية عندهم و كان فيها رجال دين نصرانيين عُرف عنهم مستواهم الرفيع ودرجاتهم العليا في فهم مبادئ النصرانية وتعاليم المسيحية، يكفي فقط أن نشير إلى القديس سانت أوغسطين الذي ألف كتباً لقيت رواجاً كبيراً أكسبته مكانة وقوة وتأثيراً لا يزال المسيحيون إلى اليوم يشهدون أثرها، وقد أوكلت المهمة للقساوسة والرهبان ليُساعدوا الإدارة في مشروعها الرامي إلى النفخ في العنرات الطائفية وضرب الأجناس المكونة للمجتمع الجزائري بعضها ببعض من خلال إستمالة الأمازيغ إليهم وإضعافهم من الجانب العقائدي فعززوا من وجودهم بالمناطق التي يقطنونها وبشكل أخص أمازيغ زاوّة (القبائل) وأقاموا بها مراكز للتنصير وكنائس لإقامة القداس وشيدوا مدارس دينية لتربية الأهالي وفق تعاليم الكنسية و مراكز للتكوين المهني أوكلت للقائمين عليها زيادة على نشاطهم

التنصيري غير المباشر إدماج الأهالي في الحياة المهنية ، كما أنشئوا أيضاً دوراً للأيتام يتم فيها تنشئتهم تنشئة مسيحية محضة فبعد أن تم بناء قرى نموذجية لتربية اليتامى في بعض من المناطق أمر الحاكم العام (دي قيدون) في 22 ماي 1874م من الكاردينال (لافيجري) أن يوسع بنائها لتشمل كل مناطق القبائل (2)، وتشير الكثير من المؤلفات والوثائق التاريخية أن وجود مثل هذه المؤسسات كان مكثفاً مقارنة بالمناطق الأخرى تُشرف عليها جمعيات تنصيرية أبدت في بادئ الأمر تفاؤلاً في تمسيحهم وإخراجهم من دائرة الإسلام وكذلك في ترسيخ أفكار تتعلق بتفوقهم على العرب حتى يستشعروا أفضليتهم عليهم فتكون النتيجة إحتقارهم ومقتهم، وكان أكثر ما يُقال على مستوى تلك المؤسسات الدينية يتضمن معاني أن الأمازيغ من أصول أروبية غالية وأنهم أقلية مضطهدة ، وما حدث بعد الفتح الإسلامي إنما غزوٌ بكل ما تحمله الكلمة من معنى ذلك أن العرب جنسٌ

تاريخ الارسال: 2017/12/18

تاريخ القبول: 2019/04/18

تاريخ النشر: 2019/12/22

متوحش عرضهم إلى الإذلال وفرض عليهم الرق والعبودية وإستعمل السيف والقوة لسفك دماء أجدادهم وتقويض سلطاتهم وملكهم على أنفسهم لذلك ضعفوا وفسدت حياتهم، وهذا ما يعني أن الإندماج لم يحدث طوعية وإنما جراء كل صور الإضطهاد تلك التي مورست عليهم حتي يفقدوا ملامح ثقافتهم وهويتهم الخاصة بهم بقبولهم الإسلام واللغة التي جاء بها ، فقد صرح أحد الضباط الساميين الفرنسيين بما معناه أن تلك القرون التي مرت على إستعراب السكان الأصليين لم تكن كافية لإدماجهم في الثقافة الإسلامية العربية كون أن الشعب القبائلي ورث بعض الأصول الجرمانية ولم يتغير مع هذه الديانة الجديدة وقد قبل بالقرآن دينا له لكنه لم يعتنقه تماما حيث لا تزال له أعرافٌ تُشتَم منه رائحة العدالة المسيحية (3) ، ومن بين المراكز التي تم تشييدها لهذا الغرض على سبيل المثال لا الحصر لأن ذكرها يطول مركز فورناسيونال سنة 1870م تم تحويله سنة 1915م إلى

أسقفية تابعة للأباء البيض، مركز جامع الصهاريج سنة 1872م أسسه اليسوعيون ثم سُلم للأخوات البيض سنة 1887م ، مركز تاغمونت عزوز في بني بني سنة 1873م ، مركز توريرت عبد الله في آيت واضوا في نفس السنة ، مركز خراطة الذي كان ينشط فيه أربعة مبشرين (4) ، وأربعة مراكز أخرى تم تشييدها بالمنطقة ما بين سنتي 1876م و1879م إثنان منهما بالقبائل الصغرى والآخران بالقبائل الكبرى وقد كان أحد أكبرغلاة التنصير بالجزائر(الكاردينال لافيغري) يدعو مناصريه وكل خدام الكنيسة الرجال منهم والنساء من أدنى مراتبهم إلى أعلاها لإلقاء الدروس الدينية بها في شكل قصص تاريخية أملا في تمسيح الأهالي (5) وأن يُظهروا دعوتهم إلى النصرانية في لون زاهي وذو طابع إنساني قائم على خدمة الناس وقضاء حوائجهم وأن يكون كلامهم كله يدور حول السلام والرحمة والبرّ والجود والإيثار والسعادة بل أكثر من هذا كله إذا ما تعرضوا للإهانة

تاريخ الارسال: 2017/12/18

تاريخ القبول: 2019/04/18

تاريخ النشر 2019/12/22

والشتم يتوجب عليهم إظهار التسامح ، وكذلك ألا يُظهروا بشكل مباشر أن الغاية الأسمى من دعاويهم والأعمال الخيرية التي نشطوا فيها (إعانات، تعليم ، تطيب) تتضمن سلخهم عن الإسلام فهذا كفيلاً من تنفيرهم وإفشال الجهود التنصيرية، وطبعاً لم يتوقف الفرنسيون طوال فترة الاحتلال عن بناء الكنائس ومراكز التنصير حتى يستتب الدين المسيحي و يكون محلّ احترام جميع سكان هذه المنطقة وكأنّ لسان حالهم يقول أنّهم سوف لن يكونوا في رضا إلا حين تنتشر الكنائس والصّلبان في كلّ شبر منها ولا يبقى فيها أتباعٌ للإسلام الشيء الذي يُفسر بذلهم لجهود لا تكاد تُصدق وصلت حتى إلى الخروج عن تقليد عريق في الدّيانة المسيحيّة وهو اللّباس الأسود الخاص بالقساوسة وسمّوا أنفسهم آباءً بيضاً يرتدون ثياباً شبيهة بالبرانس البيضاء تجعلهم شبيهين برجال الدين الإسلامي ومشايخ الزّوايا (6) ، ومنهم أيضاً من تعلّم بعض من اللّهجات المحليّة و رضوا

بالبقاء سنين طوال في مداشر وقرى جبليّة تفتقر إلى أدنى شروط الحياة قصد البحث عن الطرق المثلى التي تساعد في كسب ثقة قاطنيها، ثم تنمّة لسياسة تنصير أهالي المنطقة عمد الفرنسيون إلى تفكيك المنظومة القضائية الإسلامية وتمّ إخضاعها للمؤسسة القضائية الفرنسية بموجب قرارات ومراسيم تمّ إصدارها في هذا الشأن كقرار سنة 1874م الذي ألغى بشكل نهائي سلطة القضاء الإسلامي في منطقة القبائل (7) كما شجعوا نظاماً قضائياً كان موجوداً بالمنطقة منذ قرون وهو نظام تاجماعت (الجماعة) الذي روجوا له من منطلق أنّه نظامٌ ديمقراطيّ يزيد من الدلالة على الصلة الوثيقة بين سكّانها وبين الرومان والوندال يتم إصدار الأحكام فيها إستناداً على الأعراف والتقاليد التي قد تتناقى مع تعاليم الإسلام فقد كتب (شارل فيرود) أحد المهتمين بدراسة منطقة القبائل في هذا الشأن التالي : " إنّ سكّان هذه الجهة من الجزائر مسلمون لكن إسلامهم شكلي فهم يقبلون من القرآن ما

تاريخ الارسال: 2017/12/18

تاريخ القبول: 2019/04/18

تاريخ النشر: 2019/12/22

يُوافق مصالحهم أو ما يُثير نزعة التطير عندهم كما أنَّ العادات والأعراف التي تلقوها من أسلافهم يُمكن أن تُلغي النص القرآني ، فمثلا يحدث أن يأمر قاضي أو طالب بتطبيق نص الشريعة لكن لا أحد يُعيره إهتماما فالجماعة تحكم بموجب العادة والعرف (8) ، وبطبيعة الحال ما كان للمستعمرين وضع مخطط دون أن يدركوا النتائج المترتبة عنه والمتضمنة من هذا الجانب زوال التأثيرات الواضحة للثقافة الإسلامية بشكل متواتر حتى تختفي بصورة مطلقة ، فقد كانوا يحسبون أول الأمر أنه من السهل إعادة سكان منطقة القبائل إلى سابق عهدهم أين كان أكثريتهم مسيحيين وكان منهم أكابر رجال الملة النصرانية من أمثال سانت أوغسطين الأمازيغي الجزائري وآخرون من نفس وزنه بشروا بالمسيحية وقدموا الكثير للتعريف بمبادئها ، فعلى سبيل المثال إعتقد (الكاردينال لافيغري) في قضية إستمالتهم وإدماجهم في الثقافة الفرنسية الغربية (لغة ، دين ، تقاليد ، أخلاق...) إعتقادا جازما أن

الأخوات المبشرات والقساوسة والرهبان الذين أسسوا الكثير من الجمعيات سيتمكنون من تحقيق نجاح باهر في سلخهم عن هويتهم الإسلامية فقد قال في إحدى المؤتمرات مخاطبا الوالي العام الآتي : " إن فرنسا لا يُمكنها أن تُنجب من الأجيال ما تُعمر به أرضها وأرض الجزائر في نفس الوقت لكن إطمئنوا يا سيادة الوالي العام وطمئنوا الدولة الفرنسية لأننا وجدنا الحل لهذه المعضلة إننا عازمون على تمسيح مليونين ونصف من القبائل وحين يتم لنا ذلك فهم الذين سيُمسحون الجزائر كلها بل إفريقيا كلها"(9).

2) الفرنسية اللغوية وإحياء اللهجات

لتغيب التجانس المجتمعي: ما من شك أن اللغة أداة من أدوات صناعة الثقافة برموزها ومعانيها وتداعياتها ، كما أنها مسألة من المسائل الوطنية النابعة من ذاتية الأمة تجعل الإنسان ينتمي إلى هوية معينة وإلى وطن معين فكثيرا ما ثبت أن ولادة شخص معين في وطن من الأوطان لا تكفي لأن تتقوى الروابط بينه

تاريخ الارسال: 2017/12/18

تاريخ القبول: 2019/04/18

تاريخ النشر: 2019/12/22

وبين وطنه الذي ولد فيه لكن اللغة تكفي لأجل ذلك، وهو ما عبّر عنه الأديب (البر كامو) الذي ولد في الجزائر وحين سئل مرة عن وطنه أجاب من دون تفكير ولا تأخير نعم لي وطن إنه الفرنسية ، لذلك لما أراد الفرنسيون بنوع من فجور المنطق أن يُشوّهوا معالم الشخصية الوطنية بفرنسة العقول والألسنة إعتمدوا على مسألة الهوية والانتماء مثلما هو الحال بالنسبة لمشروع التنصير حيث تسلّلوا في قضية إنكار عروبة الجزائر عبرها ، وتوجّهوا بشكل مركز إلى الأعراش والقبائل الأمازيغية بعد أن درج أكثر من ثلاثين جيلا من أجدادهم على الإستعراب لا يعرفون إلا العربية يتكلمون بها ويتأدّبون ويتعبدون ، واجتمعت أرائهم على أنّ منطقة القبائل هي أكثر صالحة لإستقبال الحضارة الأوروبية فتقربوا من سكانها ومنحوهم بعضا من المزايا في مجالات الاقتصاد والإدارة يستفيدون بموجبها من تخفيف الضرائب ومن رخص خاصة لممارسة التجارة المتنقلة خارج منطقتهم،

ومن حق التمثيل في اللجان المالية(10)، وفي الميدان التعليمي بنوا في تلك المناطق العديد من المدارس التي منعوا التكلم فيها بغير اللهجات المحلية أو اللغة الفرنسية لقطع صلتهم بالعربية وما يتصل بها (11)، فعلى سبيل المثال لا الحصر في قرية واحدة فقط من قرى ولاية تيزي وزو وهي قرية "الأربعاء نيثراثن" فتحت الإدارة خمس وثلاثون مدرسة فرنسيّة علمانيّة (12) ومدارس أخرى شيدتها الكنيسة يتعلم فيها أبناء الجزائر على أيدي معلمين فرنسيين رجال دين مسيحيين لا يغرسون في نفوسهم سوى كرههم لكل ما هو عربي وأنّ سلفهم روماني وحتى آريّ وتاريخيا ذلك يعني أنّهم أشدّ قرابة للفرنسيين مستغلين عنصر البراءة فيهم ومحدودية النمو العقلي ، كما وظّفوا جوانب مادية لترغيبهم في الإقبال على مدارسهم بتقديم النقود والحلوة، والألعاب فضلا عن الإطعام والإيواء للذين يقطنون في القرى النائية(13) وللزيادة من حدة نشاطهم في هذا الجانب إتخذوا اللهجة القبائلية ما يشبه

تاريخ الارسال: 2017/12/18

تاريخ القبول: 2019/04/18

تاريخ النشر: 2019/12/22

الأدب والنحو ووضعوها المعاجم (الفرنسية - القبائلية) ومجاميع القصص والنوادر ثم حاولوا كتابتها بعد ذلك بالأبجدية اللاتينية (14)، ومن بين الأعمال التي تدخل في هذا الإطار قاموس ألفه (الجنرال هانوتو) إشتراك في تأليفه مع (دوماس) وضع له العنوان التالي " في لهجة قبائل زواوة " خصا فيه حديثهما عن لهجات أمازيغ الشرق الجزائري الذين تطلق عليهم تسمية أمازيغ زواوة (القبائل)، ثم توالى بعد ذلك ظهور مؤلفات في اللهجات الأمازيغية تخص مناطق أخرى ككتاب "نحو اللغة التمشقية" الذي ألفه أيضا (الجنرال هانوتو) جمع فيه المصطلحات التوارقية يستعملها أمازيغ الصحراء ، ومؤلف في اللهجة الشاوية الخاصة بالأمازيغ الذين يسكنون منطقة الأوراس وما جاورها ألفه (إيميل ماسكري) وغيرها من المؤلفات الأخرى يضيق المقام لذكرها لما هي عليه من كثرة عني بها أصحابها بأمازيغ بني ميزاب الذين يسكنون الواحات الصحراوية ، ويبدو أن الفرنسيين بهذه البحوث اللغوية

فكروا أبعد من صناعة آليات الشقاق بين العرب والأمازيغ إلى التفرقة بين الأمازيغ في حد ذاتهم وبالفعل تقرر العمل الجاد بهذه السياسة لتمزيق الشعب الجزائري عرقيا وترويضه بشكل نهائي حتى يفقد إرادته في الوقوف بوجه الاستعمار ومواجهته مع نهاية القرن التاسع عشر أين تم تقديم تقرير لمجلس الشيوخ تضمن البحث في أنجع الحلول للمشاكل السياسية والاجتماعية ألح فيه الذين أعدوه على تأييد السيطرة في الجزائر بإتباع ثلاث سياسات مختلفة إحداها تكون خاصة بالقبائل الذين يجب التركيز على تمسيحهم وفرستهم والثانية تخص الشاوية الذين هم مزيج من الأجناس وتوجه الثالثة للعرب ويذكر التقرير أن هذه الطريقة في الحكم كفيلة لزرع الشقاق والإنقسامات في أوساط الجزائريين الذين لا يمكن أن يكون إتحادهم في صالح السياسة الإستعمارية (15)، وطبعا بحكم أن الاستعمار والتنصير في الجزائر وجهان لعملة واحدة توجب على القساوسة والرهبان تقديم

تاريخ الارسال: 2017/12/18

تاريخ القبول: 2019/04/18

تاريخ النشر 2019/12/22

المساعدة من هذا الجانب فألفوا الكثير من القواميس والكتب للتعريف بالمسيحية على غرار (الأب هاينغر) الذي ألف قاموسا فرنسيا قبائليا سنة 1896م أتبعه بقاموس ثاني فرنسي قبائلي ألفه سنة 1901م ، والأب فورمون الذي ألف كتابا عن حياة سيدنا عيسى سنة 1916م مترجم إلى القبائلية ومؤلفات أخرى مترجمة إلى القبائلية كدليل الصلاة و مختصر العقيدة المسيحية والأنجيل وزيادة على الذي ذكرناه بغية أن تنجح إستراتيجية الإدارة الاستعمارية في تمزيق وحدة الجزائريين وزرع الشقاق بينهم فسحت المجال لدراسة اللسان القبائلي واستحدثت شهادات علمية تمكن الحاصلين عليها من تلقي حوافز مالية ومن بين أولئك الذين فكروا في تجسيد هذا المشروع الجنرال (هانوتو) الذي ذكرناه آنفا والمعروف بدراساته وإهتمامه بتراث وثقافة العرق الامازيغي بالجزائر فقد توجت كل أعماله في هذا الصدد بإدخال اللغة القبائلية قطاع التعليم فأصدرت الإدارة مرسوما

سنة 1885م يسمح بالقبول لتحضير شهادة في اللغة القبائلية في كلية الآداب جامعة الجزائر، و في معهد الدراسات الشرقية بباريس وقد كُلف ليتولى تدريسها بصورة رسمية فيه الكثير من الأساتذة والأكاديميين الاستشراقين من أمثال إيموند ديشان ، ران باسي ، وألريه باسي... وغيرهم ممن كان نشاطهم حثيثا في سبيل إحياء فكرة لهجات بربرية قصد إضعاف اللغة العربية بين ذويها وفي وطنها(16)، وما يُبين بشكل جلي أن مساعي الفرنسيين لإحياء اللهجات الأمازيغية لم يكن لصالح الناطقين بها ولا حبا فيهم هو أن تلك القواميس والمعاجم أكثريتها كان يُكتب باللغة اللاتينية وهنا وقع خبراءها الاستعماريون في تناقض صارخ فقد أعماهم غلوهم الزائد عن الحدود في مقت الإسلام والعربية عن ذلك فكيف لهم أن يُحيوا لغة أو بالأحرى لهجات مختلفة عن طريق كتابتها بلغة أخرى لا علاقة بينهما لا في الأصول ولا في الفروع مع العلم أن اللغة الأمازيغية في حقب موعلة في التاريخ

تاريخ الارسال: 2017/12/18

تاريخ القبول: 2019/04/18

تاريخ النشر: 2019/12/22

كان لها رسمٌ خاصٌّ بها (التيفناغ) التي تعني خطنا ، وهي الفكرة التي علق عليها البشير الإبراهيمي بالقول : " يُنكر الاستعمار الفرنسي عروبة الشمال الإفريقي بالقول ويعمل لها بالفعل وهو في جميع أعماله يرمي إلى تهوين العربية بالبربرية وقتل الموجود بالمعدوم ليتم له ما يُريد من إستئصالهما معا وإنما يعتمد العربية بالحرب لأنها عماد العروبة وممسكة للدين أن يزول ولأن لها كتابة ومع الكتابة العلم والأدب ومع الأدب التاريخ ومع كل ذلك البقاء والخلود" (17) ، تعليقٌ يُصدقه الواقع حيث أنه في حين جربت فرنسا كل شيء لمحاربة اللغة العربية لم يشغل سدنتها بالهم في التضييق على اللغة الامازيغية أو لهجة من لهجاتها فالباحث في الموضوع سوف لن يجد أي كتاب ولا أي وثيقة من الوثائق التاريخية تذكر ولو تلميحا فكرة محاولة فرنسا القضاء على اللغة الامازيغية لأنها ببساطة كما أسلفنا وأن أشرنا إليه لم يتحسسوا منها خطرا طوال فترة الاحتلال ولا عدوها وسيلة من وسائل مواجهة الاستعمار

الفكري والثقافي، وما كانت لغة لتلقين المعارف والعلوم ولا لتثقيف العقول وهذه الحقيقة البعيدة عن نخوة التحيز الإيديولوجي ليست إختزالا ولا إنتقاصا من قيمتها فأصالتها عند أفراد المجتمع الجزائري جميعا من دون إستثناء لا تحتاج إلى بيان.

(3) إجراء الدراسات والبحوث ذات

المضمون الإيديولوجي التفتيتي: هي مجموعة

من الدراسات والبحوث لم تُنجز لغرض البحث العلمي وإنما خدمة للإستعمار قام بها مستشرقون ورجال دين و ضباط عسكري وعلماء إجتماع ومختصون في الأنثروبولوجيا والإتنولوجيا والحفريات وعلماء اللسانيات والإتنوغرافيا كل على حسب تخصصه والمجال المعرفي الذي يشغله وبالتقريب لم يدع هؤلاء مجالا من المجالات إلا خاضوا فيه، فالمهم عندهم أن يصلوا ببحوثهم تلك إلى وضع فروقات وإختلافات بين الجنسين وصلت إلى الصفات المورفولوجية ونمط العيش والتقاليد والعادات، وقد كان هذا النوع من الدراسات

تاريخ الارسال: 2017/12/18

تاريخ القبول: 2019/04/18

تاريخ النشر 2019/12/22

التي مهد بها الاستعماريون لمشروعهم في إدماج سكان منطقة القبائل وقبولهم بالثقافة الفرنسية وتمجيد القيم الدينية والحضارية الغربية المسيحية يحوي أفكارا تضليلية تقربهم من الأوروبيين وتبعدهم عن مواطنيهم العرب وما أُلّف في هذا الشأن كثيرٌ يضيق المقام لذكره، وبطبيعة الحال كانت هذه التأليف أيضا تُظهر الثقافة الإسلامية بكل مكوناتها في صورة مشوهة بتراء وتصف الإنسان العربي بكل ما يُعرف من أسماء القذح وصفات الدَم فقد ذُكر فيها أن الإنسان العربي بليدٌ جامد القريحة وشهوانيٌ وقليل الحياء لا يصدق في قوله وليس أمينا ومتباطئ، إلى غير ذلك من الصفات الذميمة التي لا تليق ولا تحفظ للإنسان كرامته والعائد إلى تلك الكتب والمؤلفات التي سار فيها أصحابها وفق الإيديولوجيا الاستعمارية سيقف على الكثير من أفكار الزيف هذه والتصنيفات التي تنتقص من قيمة الفرد الجزائري العربي وتُحقّره بوضعه في مكانة إجتماعية دونية وإعتبارا ذاتي مُنحط وفي المقابل تمجد القبائلي

وتعطيهِ مكانة إجتماعية وإعتبارا ذاتيا عاليين(18)، ففي هذا السياق كتب أحد الباحثين (فيسكونت دوسانت أيمور) التالي: "إنّ العرب جنسٌ لا يُمكن إدماجه في الثقافة الفرنسية على عكس القبائل يُمكن إدماجهم لأنّ العرب رُخاةٌ بطيئون ويميلون إلى الحزن والتزمت أما الإنسان البربري(القبائلي) فهو مُجد في عمله وفي كسبه وفي النهاية فهو غير متدين كثيرا"(19)، فالقائمون على شؤون الإدارة كانوا مُتقين أنه لا يُمكن أن تقوم لهم قائمة في البلاد وأهلها متضامنون متحدون في صورة الأصابع من راحة اليد ومُدركين أنّ نجاح فرنسا في إبقاء المجتمع الجزائري تحت رحمتها ومنعه من فك أغلاله مرهونٌ بالنجاح في صناعة آليات التمزيق والإحتواء وهو ما دعاهم لوضع حُطط سُخّرت لها كل الإمكانيات المادية والمعنوية تُمكنهم من تجاوز أخطائهم ومن فهم أسباب فشل الرومنة حتى تنجح الفرنسية فأعتمدوا طرائق جديدة إذ بعد الإحتكام إلى منطق القوة وممارسة كل ألوان التعسف من

تاريخ الارسال: 2017/12/18

تاريخ القبول: 2019/04/18

تاريخ النشر: 2019/12/22

دون رادع ولا ضوابط ولا قيود وجدوا أنفسهم مضطرين إلى اعتماد أساليب جديدة يتدرجون بصورة متواصلة في تطبيقها ، فالإستعمار تطوّر وإذا ما أراد أن يكون أكثر خطورة وأشد فتكا لا بد وأن يعتمد على أساليب الهجوم غير المباشر للوصول إلى الأهداف المباشرة ، فوضع خبراؤه دسياسة جديدة توجهوا بها بشكل أساسي إلى أمازيغ زواوة (القبائل) وهذه الدسياسة لا تُظهرهم في الواجهة يكون أطرافها الفاعلين أهل البلاد في حدّ أنفسهم وقد لا يستشعرونها أسموها الأسطورة البربرية أرادوها كعمول أسطوري يُعيد المحتل الأوروبي فبركته وإستغلاله للهيمنة سياسيا وإجتماعيا وللإلهاء ليصرف أبناء الجزائر عن مصارعة الإحتلال، وقد خصص لهذه الأسطورة المؤرخ الفرنسي شارل روبير أجرون فصلا كاملا في مؤلفه الموسوم (الجزائريون المسلمون وفرنسا) ، ذكر فيه أعمال أكثر المتعصبين من خدام الإدارة الاستعمارية الضباط منهم والسياسيين ورجال الدين المسيحيين والإداريين وكذلك الغلاة من

المستشرقين الذين رفعوا لواء (أسطورة الشعب القبائلي) أمثال دوماس (Dumas)، وساباتيني (Sabatier)، وطوكفيل (Tocqueville)، والجنرال ديفيفي (Duvivier)، والنقيبين: فابر (Fabre)، وكاريت (Carette)، والدكتور وارنيي (Warnier)، والجنرال هانوطو (Hanotaux)، والكاردينال لافيغري (Lavigerie)، ويوميل (Pomel)، ورينو (Renoux) وغيرهم كثيرون يطول ذكر أسمائهم وأعمالهم التي ترسّخ بشكل من الأشكال تميّز سكان منطقة القبائل عن مواطنيهم العرب ، وبشكل عام تضمّنت هذه الأسطورة التي تُكرّس سياسة الأعراق وتُذكي نار العداوة بين أبناء الوطن الواحد مجموعة من الأفكار قائمة على الخطابات التقسيمية وعلى دعوى منبثقة من عصبية الجنس أو العرق وفي مجملها تُعبّر عن خليط من الإستدلالات الخاطئة ينزع فيها أصحابها إلى ربط أهالي منطقة القبائل بأصول أوروبية وإلى

تاريخ الارسال: 2017/12/18

تاريخ القبول: 2019/04/18

تاريخ النشر: 2019/12/22

ترويج فكرة أنهم من الوجهة الثقافية الدينية وحتى المورفولوجية أقرب للفرنسيين وأيضا ينكرون من خلالها كل صلة للسكان الأصليين أيا كانت طبيعتها بالعرب الفاتحين الذين منعوهم من حكم أنفسهم وعاثوا في البلاد فسادا وخرابا على كل الأصعدة وأرغموا أهلها على ترك الديانة التي كانوا يدينون بها بالقوة (20)، وزيادة على كل الذي ذكرناه حاولوا وضع إدعاءات متناقضة لا أساس لها من الصحة تقلب الحقائق قلبا صارخا تتعلق بالكثير من نقاط الاختلاف بينهم وبين مواطنيهم العرب ونقاط التشابه بينهم وبين الفرنسيين من حيث نمط حياتهم ووضعهم الأوشام على شكل صلبان وإجتهادهم في العمل ، وكذلك إعتمادهم في فضّ النزاعات و تنظيم العلاقات بينهم على ما يُسمى بنظام تاجماعت الذي سبق وأن ذكرناه والشبيه إلى حد كبير على حسب زعمهم بطريقة الحكم الديمقراطي ففي هذا السياق يقول البارون (أوكابتان) : " إن دستورهم (القبائل) جمهوري

وحكمهم ديمقراطي وقراهم تشبه قرانا بسقوفها القرميدية الحمراء ويحملون وشما على شكل صليب ويوم إستراحتهم يوم الأحد " (21) ، ثم إن الرجل القبائلي له بعض من الميزات والخصائص لا يوجد لها نظير إلا عند الرجل الأوروبي الفرنسي وهذا ما يجعلهما من نفس الأصول الرومانية فهو فلاح إرتباطه بأرضه شديد وهو لا يتزوج إلا إمراة واحدة فهي أم العائلة وليست متاعا أو دابة عكس الرجل العربي المسلم الذي يأخذ المرأة إشباعا لرغبته فهو يأخذها بصورة شبيهة بتلك التي يشتري فيها الأمة من السوق فقط الشكل يختلف (22)، وذهب الفرنسيون أبعد من هذا الحد بوصولهم إلى المرأة القبائلية حيث صوروها كذلك على أنها شبيهة بشكل واضح بالمرأة الأوروبية الفرنسية كونها لا تتحجب ولها زي خاص شبيه بزيها عكس العربية التي تنزي بزي لا يظهر منها شيء يجعلها مُعقّدة لا تعيش زمانها وبعيدة كل البعد عن المدينة المعاصرة ، كما أنّ المرأة القبائلية متحررة من خلال

تاريخ الارسال: 2017/12/18

تاريخ القبول: 2019/04/18

تاريخ النشر: 2019/12/22

أعمالها اليومية وتقضي الكثير من الوقت خارج البيت للرعي ومساعدة الرجل في أعمال الفلاحة حالها مثل حال المرأة الأوروبية عكس المرأة العربية التي لا تخرج من بيتها الشيء الذي يُقيها رجعيةً متفوقة في ماضيها وغائبة عن ساحة الفعل لا تتحسّس ما يستجد به العالم من تطور في كل المجالات ، وبالإضافة إلى النقطتين السابقتين فإنّ المرأة القبائلية كذلك لا تترث مثل المرأة الأوروبية المسيحية وعلى نقيض المرأة العربية التي وضع لها الشرع المحمدي نصيبا من تركة أهلها ، ومجموع هذه الأفكار هي التي عبّرت عن الطروحات المؤسّسة للأسطورة البربرية كدسياسة ارتأى الذين فكروا فيها نشر الخصومات والضغائن بين الجنسين المكونين للمجتمع الجزائري (الأمازيغ والعرب) اللذين لم يمر عليهما قرنٌ من الفتح الإسلامي حتى إمتزجا وتلاقحا حضاريا وقويت علاقات المصاهرة بينهم فأختلطت دمائهم إلى درجة أنّه لا أحد في هذا البلد يجزم أنّه نقيّ الدم أمازيغيّ كان أم عربيّ فكانت النتيجة بعد أمد

ليس ببعيد أنّ حقّقوا نضجا حضاريا مشهودا في ظل الثقافة والتراث الإسلاميين بأشكالهما المتعددة ليس لأحد أنّ يُقصي الآخر ولا أنّ يحتكر هذا التراث لوحده وهو ما يسمح لنا بالقول أنّ مسألة الهوية الثقافية والدينية واللغوية للبلد وسكانها قد حُسمت فهؤلاء القبائل المتشرفون بأمازيغيتهم والذين يُنظر إليهم على أنّه من المستحيل دمجهم وإحتوائهم في الحضارة الإسلامية كما يدعيه غلاه الاستعمار أظهروا العكس تماما حيث إنضوا تحت لواء هذه الحضارة وساهموا إسهاما بارزا لا يُمكن نكرانه في إثرائها وفي جعلها أكثر غنا ، ولم تظهر هناك حسب علمنا وما سقط بين أيدينا من مؤلفات وكتب حركة تدفع في تيار بعث الهوية الأمازيغية حيث لم يكونوا بحاجة لذلك كونها كانت موجودة قبل الإسلام وبقي وجودها محفوظا بعده فقط لأنّ الثقافتين الأصلية والوافدة (الأمازيغية والعربية الإسلامية) منسجمتان ومتكاملتان يصعب الفصل بينهما.

تاريخ الارسال: 2017/12/18

تاريخ القبول: 2019/04/18

تاريخ النشر: 2019/12/22

خاتمة : يمثل الدسائس التي ذكرناها والتي طبقتها فرنسا في الجزائر بشكل مُحكم وبألوان متنوعة طوال فترة الاستعمار حاولت جاهدة نفس الوحدة الوطنية من أساسها بنشر وباء التمييز العنصري و زرع الأحقاد بين أبناء الوطن الواحد حتى تشتت هويتهم وتتفرق البلاد إلى جماعات عرقية ولغوية متميزة ، ومع أنّ السلطة الاستعمارية لم تكن في مستوى حملتها الدعائية التي إبتغت من ورائها إستمالة القبائل من منطلق أنّ معاملتها لجميع الجزائريين بقيت على نفس النمط سمتها التعسف ولم تمنح سكان المنطقة أية مزايا حقيقية إلا أنّ هذا المشروع المتضمن إبداع هوية جديدة لهم جذب إليه بعضا من ذوي نزعات التعصب العرقي سواء في فترة الإحتلال أو حتى بعده ما يدل على أنّ توظيفه كان على قدر كبير من التحكّم والبراعة حيث أوجد في الجزائر نخبة مُتشبعة بالفكر الفرنسي الغربي تُنكر وجود الصلة بين العرب والأمازيغ ولا تتحدث عن تاريخ الجزائر إلا

بالرجوع إلى أمجاد ماسينيسا ويوغرطة والكاينة وكسيلة ثم يتوقف التاريخ لديهم في تلك الحقبة الزمنية ، و يبقى مبعث التساؤل عند كل صاحب عقل متدبر كيف لفرنسا وأذنابها من أصحاب النزعة البربرية المتعصبة أن يقبلوا بفرنسة وتنصير سكان منطقة القبائل بعد سنوات تزيد عن القرن من الزمن فقط ولا يقبلون بإسلامهم وإستعراهم بعد مُضي ما يربو عن ثلاث عشر قرنا.

الهوامش :

- (1) الحسني محمد الهادي ، " النقمة " ، جريدة الشروق اليومي، العدد 2803، صادر 8 جوان 2009، ص 13.
- (2) شارل رويير اجيرون: المسلمون الجزائريون وفرنسا، ترجمة محمد حاج مسعود، الجزائر، دار الراشد للكتاب، ط1، ج2 ، 2007م، ص126.
- (3) نفس المرجع، ص 498.
- (4) بقطاش خديجة ، الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر ، الجزائر ، مطبوعات دحلب ، 1992م، ص 156.
- (5) شارل وريير اجيرون، المجتمع الجزائري في فجر الأيديولوجية الكولونيالية، ت: محمد العربي ولد خليفة، الجزائر، منشورات تالة ، 2002م، ص129.
- (6) بن نعمان أحمد ، " الحصانة الدينية للشخصية الجزائرية " ، الجزائر ، مجلة الأصالة ، العدد 86، 1980م، ص 72.

تاريخ النشر 2019/12/22

تاريخ القبول: 2019/04/18

تاريخ الارسال: 2017/12/18

(20) محمد الطاهر وعلي ، التعليم التبشيري في الجزائر ، الجزائر، منشورات دحلب، 1998م ، ص 239.

(21) شارل رويير أجرون، المسلمون الجزائريون وفرنسا ، مرجع سبق ذكره ، ص 500.

(22) E – A Duchesne , la prostitution dans la ville d'Alger depuis la conquête , paris , libertaire de l'académie impériale de médecine, 1953 , p78 .

(7) شارل رويير أجرون ، المسلمون الجزائريون وفرنسا، مرجع سبق ذكره ، ص 468.

(8) Féraud Charle, **Mœurs et coutumes Kabyles**, *Revue Africaine*, VI, 1862, p272 p273.

(9) بن نعمان أحمد، فرنسا والأطروحة البربرية ، الجزائر ، دار الأمة ، ط1990، 1م ، ص 121.

(10) شارل رويير أجرون ، المسلمون الجزائريون وفرنسا، مرجع سبق ذكره ، ص 493.

(11) بن نعمان أحمد ، " الحصانة الدينية للشخصية الجزائرية " ، مرجع سبق ذكره ، ص 77

(12) بوصفصاف عبد الكريم ، مرجع سبق ذكره، 134.

(13) سعيد مزيان، السياسة الاستعمارية في منطقة القبائل ، الجزائر، وزارة الثقافة، ج2، 2010م، ص200.

(14) محمد علي مازن ، عروبة الجزائر . الحقيقة المغمورة . ، مصر ، المنظمة العربية للتربية والثقافة ، 1992م، ص208.

(15) العربي الزيري ، المثقفون الجزائريون والثورة ، الجزائر، المؤسسة الوطنية للنشر والإتصال، 1985م، ص 75.

(16) بن نعمان أحمد ، فرنسا والأطروحة البربرية ، مرجع سبق ذكره، ص 67.

(17) الإبراهيمي محمد البشير ، عيون البصائر ، لبنان ، دار الغرب الإسلامي ، ج2، ط1، 1997م ، ص 479.

(18) عمر محسوس ، " بربر الجزائر والتعريب " ، بيروت ، مجلة دراسات عربية ، عدد 1. 2، نوفمبر، 1995م ، ص 9.

(19) نفس المرجع ، ص 11.